الفصل السابع

الاقتصاد والإدراك والاتصالات

فى القرن التاسع كتب مؤلف فى بغداد مقالة قصيرة ، كان عنوانها « نظرة واضحة إلى التجارة » وقد ناقش المؤلف فى هذه المقالة السلع المختلفة التى هى أساس التجارة : أنواعها وصفاتها ، وأماكنها الأصلية ، وخصص جزءًا من مقالته لقائمة السلع المستوردة من « الأقطار الأخرى » إلى أن الأقطار الأخرى كلها تتكون تقريبًا من المقاطعات المختلفة للإمبراطورية الإسلامية الممتدة الأطراف فى آسيا وأفريقيا . كان هناك أربعة أقطار فقط خارج نطاق السيطرة الإسلامية ، وهى : أراضى الخرز وهى مملكة الترك فى السهب الأوراسى والهند والصين وبيزنطة ، ومن بلاد الخرز ، يؤتى بالعبيد رجالا ونساء ، والدروع ، والخوذات وملابس الرأس المصنوعة من الدروع . ومن الهند تستجلب النمور ، والفهود ، والأفيال وجلود الفهود ، والياقوت الأحمر ، وخشب الصندل الأبيض ، والأبنوس وجوز الهند ، ومن الصين يحضرون العطور والبورسلين ، والورق ، والحبر ، والطاووس والخيول ، والسروج ، والألبان والقرفة ونبات الروند . ومن بيزنطة يؤتى بالأوانى الفضية ، والذهبية ، والدينارات الإمبراطورية النقية ، والأعشاب الطبية ، والملابس المطرزة الوشى ، والخيول والإماء ، وأدوات من النحاس الأحمر والأقفال ، والقيثارات ، ومهندسى المياه ، والمتخصصين فى الزراعة ، وعمال المرمر والخصيان ،وليست هناك إشارة إلى أوروبا حيث كانت صادراتها قليلة جدًا وتافهة بحيث لم تذكر ، ومن المحتمل أن بعضا منها ربما كان موجودا فى قائمة بيزنطة [1] .

إن الروايات التى ذكرها الجغرافيون المسلمون فى العصور الوسطى عن السلع التى

تأتى من غرب أوروبا لا تأثير لها . أما الواردات القادمة من اسكندنافيا عن طريق روسيا تبدو ذات أهمية كبيرة إلى حد ما ، وبالإضافة إلى الكتابات الأدبية . . فإن هذه التجارة قد تركت وراءها وثائق مهمة وأساسية ، انطبعت على العملات الإسلامية ، والتى كان معظمها من دروسك فى وسط آسيا ، وكذلك فى اسكندنافيا وبالذات فى اللقيات السويدية .

إن مؤلفى العصور الوسطى يعطوننا القليل جدًا من المعلومات عن الأحوال الاقتصادية فى الغرب وابن يعقوب فى حديثه عن أوترخت Utrecht لاحظ « : إنها مدينة عظيمة فى أرض الفرنجة وهى واسعة الأرجاء ، وأرضها مالحة ولايمكن للبذور أو النباتات أن تنمو فيها . والناس يتقوتون من الماشية لبنها وصوفها ، وليست هناك أخشاب تستخدم للإشعال ، ولكن لديهم نوعا من الطمى يستخدم وقودا . وما يحدث هو التالى : فى الصيف . . عندما تجف المياه يذهبون إلى حقولهم ويقطعون الطمى بفئوسهم على شكل قوالب طوب . وكل رجل يقطع على قدر احتياجه ، ثم ينشره فى الشمس لكى يجف . ثم يصبح بعد ذلك خفيفا جدًا ، وإذا قرب من اللهب . . فإنه يلتهب والنار تشتعل فيه كما تشتعل فى الخشب ، ويعطى قدرًا كبيرًا من اللهب ، مع قدر كبير من الحرارة مثل لهب منفاخ نافخى الزجاج . وعندما يتم احراق قطعة منه بالكامل . . فإنها تترك رمادًا لا فحما » .

وابن يعقوب لديه ملاحظات مشابهة عن مدن أخرى زارها ، أو سمع عنها . إنه يقول عن بوردو « إنها غنية بالمياه والأشجار والثمر والحب ، وعلى شواطئها يوجد الكهرمان الممتاز » .

أما مدينة روين فهى : « مبنية من أحجار منتظمة ، تتناسق على نهر السين الأعشاب والأشجار لاتنمو هناك مطلقا، ولكن هناك الكثير من القمح والحبوب ، ويصطادون السمك من النهر ، ويطلقون عليه سالمون ، وهناك نوع آخر من الأسماك صغير وطعمه ورائحته مثل الخيار . . فى الشتاء فى روين عندما يكون البرد شديدًا . . يظهر نوع من الأوز ذى قدم حمراء ومنقار أحمر ، وهذا النوع لايفقس إلا على جزيرة

غير مسكونة ، وأحيانا . . تتحطم السفن فى البحر ، ويستطيع الذين يصلون هذه الجزيرة أن يعيشوا على بيض وفراخ هذا الطائر لمدة شهر أو شهرين » .

وعن شليزونج يذكر :

« إن المدينة بها أشياء جيدة وقليلة . ويتكون غذاؤها من السمك وهو وفير . وعندما يولد طفل لأى شخص يلقى فى البحر من أجل توفير نفقاته » .

ولكن انطباعه عن ماينز كان أكبر ، يقول :

« إنها مدينة عظيمة جدًا بعضها مسكون والآخر مزروع ، إنها فى أراضى الفرنجة على نهر يسمى الراين . وهى غنية بالقمح والشعير والحبوب والموالح والفاكهة . وهناك دراهم مضروبة فى سمرقند عام ٣٠١ - ٣٠٢ هـ (٩٣٤ - ٩٣٥ م) باسم الحاكم وتاريخ الإصدار هناك شىء غير طبيعى ، فرغم أن هذه المدينة تقع فى أقصى الغرب . . إلا أن بها توابل من التى لاتحصل عليها إلا من أقصى الشرق مثل الفلفل و الزنجبيل والقرنفل والمسك ، والخولنجات . هذه التوابل تجلب من الهند وتجدها بكثرة فى هذه المدينة[٢] » .

كان لدى الكتاب المسلمين ، فى العصور الوسطى المتأخرة معرفة أوضح إلى حد ما ، فعلى سبيل المثال . . يعرض الإدريسى معلومات مفصلة تماما . حتى الأماكن البعيدة مثال انجلترا لاحظ « ابن صاعد » صفة مميزة لها : « توجد مياه الأمطار فقط فى هذه الجزيرة وبفضلها تنمو المحاصيل . وفى الجزيرة توجد مناجم الذهب والفضة والنحاس والصفيح . وليس لدى أهلها الكروم ؛ نظرًا للبرد الشديد وينقل الناس إنتاج هذه المناجم لفرنسا ، ويستبدلونه بالخمر ، وهذا هو السبب فى أن حاكم فرنسا لديه الكثير من الذهب والفضة[٣] .

أما المؤرخ الفارس رشيد الدين . . فقد تأثر بثروة انجلترا التى « تحتوى على مناجم لا حصر لها من الذهب والفضة والنحاس والصفيح والحديد . وأنواع كثيرة من الفاكهة أيضًا . « وقد لاحظ رشيد الدين كذلك ، أن تجار الفرنجة يسافرون إلى مصر

وسوريا وشمال أفريقيا والأناضول وتبريز، عن طريق مدينة جنوا »[٤] .

إن ثلاثة فقط من السلع المنتجة ، فى وسط وغرب أوروبا ، جذبت اهتمام المسلمين وهى العبيد السلاف والأسلحة الفرنجية ، والصوف الانجليزي ، ونظراً لأن القانون الإسلامى يحرم استرقاق أى مسلم حر ، أو أى ذمى حر من الرعايا دافعى الجزية فى الامبراطورية الإسلامية . . فإن العبيد الموجودين فى الأراضى الإسلامية إما أن يكونوا قد ولدوا عبيدا ، أو هم من خارج الامبراطورية . وقد ثبت بسرعة أن الزيادة الطبيعية لاتفى بالغرض لسد حاجة الأعمال التي يقوم بها العبيد . والامبراطورية الإسلامية على العكس من الامبراطورية الرومانية والامبراطوريات القديمة لم تستطع زيادة عبيدها عن طريق استعباد المجرمين ، والذين عليهم دين لذلك كان يجب استجلاب عبيد جدد من وراء الحدود الإسلامية بواسطة الأسر ، أو الشراء .

وكان هذا من الأشياء المميزة للاختلاف بين الامبراطورية الإسلامية والامبراطوريات الأخرى . فى العصر القديم . . كان أغلبية العبيد من أصل محلى باستثناء فترات مابعد الحملات الناجحة . وعلى العكس من ذلك . . فى الامبراطورية الإسلامية كان أغلبية العبيد يأتى بها من خارج الأرض الإسلامية . وقد أدى هذا إلى تطور قوى لتجارة العبيد فى كل الأقطار المجاورة للعالم الإسلامى من أجل سد حاجتها المتزايدة .

كان المصدران الرئيسان للعبيد بالنسبة للامبراطوريات الإسلامية من السهول الأوراسية فى الشمال ؛ حيث كان العبيد من البيض ومعظمهم من الترك ، وكانوا يستخدمون بشكل رئيسى فى أغراض عسكرية ، ومن أفريقيا المدارية فى الجنوب ؛ حيث كان العبيد السود الذين يتم أسرهم أو شراؤهم يستخدمون فى الأعمال المنزلية والأعمال الأخرى . لقد كانت هناك أيضًا مناطق أخرى لجلب العبيد ، وكانت أوروبا واحدة منها . ومن الطبيعى أن العبيد الذين هم من أصل أوروبى . . كانوا فى الأراضى الإسلامية الغربية ؛ وخاصة إسبانيا ، كما حدث فى المناطق الأخرى ، لقد جلب هؤلاء عن طريق الحملات العسكرية . وكان الفرد الوثنى الذى يؤسر فى ميدان المعركة يعتبر من الناحية القانونية عبدا ، ولفترة ما يعتبر هذا وافيا للغرض .

ويتوقف الزحف الإسلامى الذى استتبعته فترة من الجمود ، ثم التدهور التدريجى . . لم تعد امدادات أسرى الحرب وافية بالغرض ، خاصة أن هؤلاء الأسرى قد يدفعون فدية أو يستبدلون . ومن هنا أصبح الحصول على العبيد مقصوراً على الشراء ، وازدهرت تجارة استجلاب العبيد الأوروبيين من الذكور والاناث ، لسد احتياجات مسلمى اسبانيا وشمال أفريقيا . . عرف هؤلاء العبيد المتبقين فى الغرب المسلم بالصقالية ، وهى الكلمة العربية لجمع الصقلى أو « سلاف » كما هو الحال فى لغات أوروبا ، فكلمة « سلاف » وعبد يبدو أنهما يحتويان معنى عرقياً ذا أصل اجتماعى مشترك . وفى كتابات الجغرافيين . . تشير كلمة Saqaliba للشعوب السلافية Slavonic المختلفة فى وسط أوروبا وشرقها . وفى تواريخ إسبانيا الإسلامية . . أصبحت كلمة صقلبى اصطلاحًا لحراس الخلفاء الأمويين في قرطبة تمامًا مثلما المماليك الأتراك فى الخلافة الشرقية . والصقالبة الأوائل فى إسبانيا يبدو أنهم كانوا أسرى ، أسرهم الألمان فى غاراتهم على أوروبا الشرقية ، ثم تم بيعهم إلى مسلمى اسبانيا . وفى وقت ما . . أصبح المصطلح صقلبى يضم كل العبيد البيض الذين يخدمون فى الجيش أو فى المنازل . أن ابن حوقل المؤلف العربى فى القرن العاشر ، الذى سافر وزار اسبانيا المسلمة ، لاحظ أن العبيد الأوروبيين الذين قابلهم لم يأتوا من شرق أوروبا فقط ، بل من فرنسا وإيطاليا وشمال اسبانيا . وبعضهم لايزال يؤسر ليس عنّ طريق الحملات العسكرية ، ولكن بواسطة الغارات التى تتم من البحر .

وكذلك استمر الاستيراد التجارى للعبيد من فرنسا ، وقد يمكننا استعارة كلمة المؤرخ الهولندى دوزى كانت هناك صناعة للخصيان Manufactory of eunuchs فى مردون (٥) .

إن التركيب المميز للمجتمع الإسلامى كان كفيلاً بأن يصبحوا عنصراً مهما جداً فى المجتمع الاسبانى العربى ، ذلك أننا نجدهم يخدمون كقواد ووزراء ، ويملكون ثروات طائلة وأحيانا يملكون عقارات وعبيدا خاصة لهم . ونظرا لأنهم اكتسبوا اللغة العربية . . فنجد منهم الباحثين والقراء والعلماء بأعداد هائلة ، حتى إن أحدهم فى عهد

هشام الثانى (٩٧٦ هـ / ١٠١٣ م) قد ألف كتابا كاملا عن مزايا وانجازات الصقالبة فى الأندلس ، ولم تتبق من الكتاب أية نسخة .

وعندما أسس الفاطميون خلافتهم فى تونس فى وقت مبكر من القرن العاشر ، وتقدموا نحو الشرق لغزو مصر .. قام العبيد الصقالبة بعد حوالى ٥٠ عامًا بدور ذى أهمية . ان جوهرا الذى قاد الجيش الذى غزا مصر ، وأحد مؤسسى القاهرة ربما كان سلافيا[٦] .

لقد اشتغل كثير من الأوروبين بتصدير العبيد للعالم الإسلامى ، وتضمنت قوائم التصدير .. مسيحيين ويهودا ومواطنيين من المدن التجارية الكبرى فى ايطاليا وفرنسا ، وكذلك فى اليونان فى شرق البحر المتوسط ، وقد مارس البنادقة دورًا مهمًا ؛ حيث بدأوا فى منافسة الاغريق فى هذه التجارة منذ عصر مبكر فى القرن الثامن .

ويبدو أن الأوربيين كان يؤرقهم بيع عبيد مسيحيين للمسلمين فى أسبانيا وشمال أفريقيا ومصر ، ومع أن هذا قد حسه شارلون والبابا زخارى والبابا هاردان الأول الذى حاول إنهاء هذه التجارة . أما البنادقة .. فقد كانوا جريئين إلى درجة جعلتهم يبيعون عبيدا من الجنسين فى قلب مدن روما[٧] .

وكانت البندقية هى المصدر الرئيسى لتوريد الخصيان للبلاطين الإسلامى والبيزنطى ، وقد وصلت هذه التجارة إلى هذا الحد وأصبحت عملا شاقا ، وفى أوقات حرمها الحكام البنادقة أنفسهم ، وإن لم يكن هذا التحريم ذا أثر كبير .

لقد كانت التحريات والادانات غير ذات أثر فى وقف هذه التجارة المربحة . إن الموقع الجغرافى للبندقية على حافة الأراضى السلافية ، وكونها على اتصال بحرى سهل بالدول الإسلامية قد أعطى البحارة البنادقة ميزة كبرى ، وكذلك جزيرة بولا Pola فى البحر الأدرياتى التى أصبحت من أملاك البندقية ؛ حتى أصبحت سوق عبيد رئيسية .

وهناك مصادر أخرى لتوريد العبيد ، فلقد كان القراصنة المسلمون من إسبانيا وصقلية وشمال أفريقيا ، يغيرون على سواحل البحر المتوسط المسيحية ؛ خاصة فى

القرون ١٠ ، ١١ و ١٢ ، ويحملون أعداداً كبيرة من الأسرى . ففى عام ٩٢٨ . . يقال إن بعثة أو حملة واحدة على البحر الأدرياتى عادت إلى ميناء المهدية فى تونس وتحمل ١٢٠٠٠ أسير ، وكان قائدها صابر Sabir وهو عبد سلافى معتنق لحاكم صقلية ، وكان دائم الإغارة على سواحل ايطاليا ودلماتيان .

استمر هذا الأسلوب لتجارة الرقيق خلال العصور الوسطى ، ولم يبدأ فى الاختفاء إلا منذ القرن الخامس عشر ، وهناك سبب واحد لهذا التغير ، وهو أن التجار المسلمين فى بحثهم عن التوابل (انظر ص ٢١٦) بدأوا فى ايجاد طريقهم إلى مصادر الامداد مباشرة . لقد كان الوسط يخادع كلا الطرفين . وبينما كان البرتغاليون يدورون حول أفريقيا ، ويحضرون توابلهم من مصادرها فى الهند الشرقية . . كان الأتراك يتقدمون فى البلقان . والبحر الأسود ، ويأخذون حاجاتهم من العبيد مباشرة من شعوب شرق ووسط أوروبا (انظرص ٢١٦) ، للشرق الأوسط وشمال أفريقيا ، وخلال القرنين ١٥ ، ١٦ . . كان جنوب وشرق أوروبا هو المصدر الرئيسى للإمداد بالعبيد ؛ حيث كان تقدم العثمانين للجهاد يؤدى إلى جلب امداد ضخم ، ومستمر من الألبانيين والسلاف والوالاش والمجريين ؛ وأيضًا المسيحيين من أقطار أخرى ، كان بعضهم يجند بواسطة المشهور ، والأطفال المسيحيين من الشعوب الخاضعة للامبراطورية ، والبعض الآخر أسر فى المعارك في القرن ١٧ هجرى الـDevshirme تدريجيا ، وفى نفس الوقت كان الخمول الذى أصاب الحروب بين العثمانين Hapsburgs يعنى أن الغزو لم يعد قادرًا على الامداد بالعدد الكافى من العبيد ؛ لسد احتياجات المجتمع العثمانى .

ولكن وجد البديل ، لقد كان خانات التتار فى Crimea وهم أسرة مسلمة مستقلة ،تعترف بالسيادة العثمانية يرغبون فى تجارة عظيمة للعبيد من خلال غاراتهم . لقد كان المغيرون التتار يأسرون العبيد من روسيا وبولندا وأوكرانيا وشرق أوروبا يحضرون إلى كريميا ؛ حيث يباعون ويشحنون إلى إسطنبول ، ثم يوزعون على الأسواق الإمبراطورية العثمانية . وان حصار السهوب ، كما يطلق التتار على أرضهم ، جعلهم يقدمون إمدادا كبيرًا ومستمرًا من العبيد من كلا الجنسين ، وذلك حتى عهد

متأخر من القرن ١٨ ، عندما توقفت غزوات التتار بعد ضم كريميا إلى روسيا .

إن الدور الذى لعبه الأطفال المسيحيون من البلقان ، ثم الذين جندوا فى خدمة العثمانيين خلال الـ Devshirme معروف جيدا . التحقت أعداد كبيرة منهم بالجهاز العسكرى والبيروقراطى العثمانى ، الذى أصبح يدار فى وقت ما بهؤلاء المجندين الجدد . إن صعود الأوروبيين من البلقان لسدة السلطة العثمانية ، لم يمر دون أن يلاحظ . وهناك كثير من الشكاوى من العناصر الأخرى من العبيد القوقازيين ، حيث كانوا المنافسين الرئيسيين لهم ، وكذلك من المسلمين الأحرار والقدماء ، الذين أحسوا بالإهانة لتفضيل العبيد الجدد عليهم . إن الشاعر فيزى Veysi يكتب فى وقت مبكر من القرن ١٧ عن الاضطرابات الامبراطورية وأسبابها ، وقد لاحظ من بين الأشياء المحزنة « أنه لمن الغريب أن هؤلاء الذين ينعمون بالسلطة والمراتب العليا كلهم ، البانيون وبوسنيون Bosnians ، بينما شعب رسول الله المسلمون (أى المسلمون القدماء أو ربما العرب) يعانون المهانة »[٩] .

أن تأثير مجندى الـ Devshirme كان كبيرا حقا ، كثير منهم وصلوا إلى أعلى المراتب فى الامبراطورية العثمانية ، وبعضهم الآخر برزوا كباحثين وشعراء بل كقضاه مسلمين ولاهوتين . ان دور الفلاحين من شرق أوروبا ، الذى أرسله التتار عبر البحر الأسود غير معروف عند القليل ، ويعد أيضًا أقل خطرًا فهم على عكس مجندى الـ Devshirme الذين نادرًا كانوا مايصلون إلى طبقة الأعيان العثمانيين ،وخدموا فى أماكن أكثر تواضعا وأدنى مكانة .

ولم يكن هؤلاء مقصورين على الأشكال الاعتيادية للخدمة فى المنازل والحريم ، وقد كان العبيد يستخدمون لأغراض اقتصادية على النقيض من الظن المقبول بشكل شائع .

إن توظيف العبيد فى الزراعة والمناجم كان من قبل فى العصور الوسطى ، مع أن هذا لم يكن يبدو شائعا للإنتاج أيضًا . وفى زمن العثمانيين . . لدينا معلومات مؤكدة

عن استخدام عبيد الأعمال فى المزارع بصورة كبيرة ، مع أنهم لم يكونوا مملوكين بالكامل ، وكانوا يعملون تحت حماية الحكومة .

ربما يمكننا جمع فكرة ما عن الأهمية النسبية للمجموعات الجنسية المختلفة للعبيد من الأدب الإسلامى فى هذا الموضوع . فنحن نملك عددا من تلك النصوص المكتوبة بالعربية والفارسية والتركية ، تمتد من أوائل العصور الوسطى حتى القرن ١٨ ، وتصف خصائص الأجناس المختلفة للعبيد ، والأغراض التى يمكننا استخدامهم من أجلها ، وتتكلم الأعمال الأولى عن العبيد من أصل آسيوى وأكثر خصوصا من أصل أفريقى . إن الكتابات العثمانية فى هذا الموضوع تعطى بعض الاهتمام بالعبيد السلاف والأوروبيين الشرقيين ، ولاتتناول الأوروبيين الفرنسيين ، إلا فى حالات يمكن استثناؤها[١٢] .

وفى العصور التالية . . كان المصدر الوحيد لعبيد أوروبا الغربية فى العالم الإسلامى بحق القراصنة المسلمون الذين ظلوا يأسرون السفن فى البحر وأحيانا يغيرون على الشواطئ المسيحية . هؤلاء قد دخلوا فترة جديدة من النشاط المكثف فى بداية القرن ١٧ ، حيث وصلوا لشواطئ انجلترا وايسلنده ، ومع هذا كان أسراهم يؤخذون أساسا من أجل فدية ، أكثر منها للاستخدام ، ولم يعودوا يكونون سلعة تجارية ذات أهمية . . إلا أن بعضا منهم ظلوا مع اسراهم المسلمة ، مختارين أو غير مختارين . المجموعة الأولى ، وأغلبهم ذكور تتكون من الأوروبيين الذين اعتنقوا الإسلام ، ووجدوا عملا فى خدمة القراصنة الأوروبيين السابقين خلال وقت مبكر فى القرن ١٧ ، حيث مارسوا مهنة القباطنة مع المسلمين ، وقد جلبوا مهارات مفيدة لسادتهم الجدد ، فى بناء السفن ، والمدافع والملاحة ، ومنهم من خدم أيضًا فى قيادة المسلمين إلى بعض الشواطئ البعيدة وغير الحصينة الخاصة بغرب أوروبا ؛ حيث وجدوا أسلابا وفيرة . وليس هناك دليل على أن مثل هؤلاء المغامرين كان لهم أى ضغط على الدول المضيفة .

هناك مجموعة أخرى من الأسرى الذين أسرهم القراصنة المسلمون ، وكانت اقامتهم فى الأقطار الإسلامية بغير طواعية ، ولكنها دائمة ، وهؤلاء كانوا من النساء

الذين بسبب جمالهم استبقوا كمحظيات ، أو إرسلوا بيعا أو إهداء إلى دور الحريم فى الشرق الأوسط . أما الصفوة . . فكانوا يجدون مصيرهم الأخير فى الحريم الامبراطورى فى إسطنبول كمحظيات للسلطان أو لكبراء الدولة .

إن آباء سلاطين العثمانيين مشهورون ، ولكن المعروف عن أمهاتهم قليل ، وكان معظمهن إماء فى الحريم السلطانى ، وقد أخفيت شخصياتهن وأصلهن ، حتى أسماؤهن عن التاريخ ، وذلك لأن البيت المسلم كان يحافظ على المرأة فى صمت فى المنازل وقد دفعهذا بعض الناس إلى التفكير فى أصل هؤلاء السيدات اللاتى وصلن إلى القصر إماء مغمورات ، ثم وصلن إلى مواقع ذات سلطة عظيمة كأمهات للسلاطين الحاكمة . وهناك كثير من القصص حول أمهات السلاطين وقد قيل أن بعضهن كان من أصل أوروبى ، وأكثرهن شهرة هى Naksidil وهو الاسم الذى أعطى فى الحريم إلى أم السلطان المصلح العظيم محمود الثانى . وطبقا لأسطورة منتشرة فقد كان اسمها Aimee du Bue de Rivery وهى سيدة فرنسية من Martiniqu وابنة عم جوزفين ، ولكن ليس هناك دليل يمكن الاعتماد عليه يؤكد هذه القصة . وهناك دليل أفضل فى حالة نوربانو محظية سليم الثانى، وأم خليفته مراد الثانى ، وهى سيدة تنتمي للبندقية من أصل نبيل ، وطبقا لبعض الروايات يقال إنها أخت حاكم جزيرة كرفو الذى ينتمى للبندقية ، وقد أسرها فى سن ١٢ مغير تركى ، وأرسلت كهدية للسلطان سليمان العظيم الذى أعطاها لابنه سليم فيما بعد ، وهى خليفتهما صفية أم السلطان محمد الثالث الذى دخل فى مراسلات مع البندقية وانجلترا .

إنه من غير المحتمل أن تكون هؤلاء السيدات قد أسهمن فى معرفة المسلمين بأوروبا ، أو حتى لأبنائهن سواء كانوا مملوكين أو غير ذلك ، وبطبيعة الحال فقد دخلت الحريم فى عصر مبكر جدًا ، ونظرًا لطبيعة المجتمع المسلم . . كان تأثرهن خارج الحريم لايذكر .

كانت تجارة الأسلحة على عكس تجارة العبيد تشهد نموا متواصلا ، حتى قبل الحروف الصليبية ، وهناك فقرات من النصوص العربية تمدح الجودة العالية للسيوف

الفرنجية Frankish ، وكذلك بالنسبة للأوروبيين في عهد الحروب الصليبية ؛ حيث أصبحت السيوف سلعة تصدير ذات أهمية ، وساعدت على إصلاح الميزان التجارى بين أوروبا والأقطار الإسلامية . إن تصدير الأسلحة إلى المسلمين ، مع أنه أكبر مصدرى العبيد ، أثار حنق السلطات الكنسية ، وأحيانا الملكية ، ولكن كان أثر هذا ضئيلا .

لم تكن الأسلحة الفرنجية هى الوحيدة التى وجدها المسلمون نافعة لهم ، ولكن أيضًا الرجال الذين صنعوها واستخدموها ، وهناك مؤرخ مصرى يتكلم عن رجال من الفرنجة ظلوا كصناع للأسلحة فى الأسطول وأماكن أخرى فى القاهرة تحت حكم الفاطميين [١٢] وهناك جنود فرنجة ذوو حظ ، قد خدموا فى جيوش الحكام المسلمين من أسبانيا إلى الشرق الأدنى وآسيا الصغرى ، ويقال إن بعض الحكام المسلمين المبكرين للقسطنطينية قد استجلبوا الآلات من المرتزقة المسيحيين ، بما فى ذلك مرتزقة من غرب أوروبا . ونسمع أيضًا عن تجار من جنوة وأوروبيين فى خدمة حكام الشرق الأوسط ؛ وبالأخص حكام المغول [١٣] .

كانت تجارة الأسلحة ، فى عهد العثمانيين ، واسعة جدًا ، وتحوى المواد الخام الحيوية ، وفى عام ١٥٢٧ صدر قرار بابوى بواسطة البابا كليمنت السابع باللعنة والحرمان له من الكنيسة لكل الذين يبيعون للمسلمين والأتراك ، وكل أعداء المسيحيين : الجياد والأسلحة والحديد ، والأسلاك الشائكة ، والصفيح والنحاس الأحمر والنحاس الأصفر والكبريت وملح البارود ، وكل الأشياء الصالحة لعمل المدفعية ، والأدوات والأسلحة والماكينات الخاصة بالحروب والتى يحاربون بها المسيحيين ، وكذلك الحبال والأخشاب المستخدمة فى البحرية ، وكذلك السلع والمواد الممنوعة الأخرى « بعد قرن من هذا صدر قرار مشابه للبابه أوربان الثامن ، يحتوى على قائمة أطول قليلا لأدوات الحرب الممنوعة ،وهو كذلك يعلن ويحرم من الكنيسة هؤلاء الذين يسارعون أو يعطون معلومات أو تسهيلات للاتراك والأعداء الآخرين للدين المسيحى ، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر [١٤] .

لم يكن الفاتيكان وحده الذى اهتم بهذا الأمر ، فهناك شكاوى أخرى لحكومة أوروبية عن امداد قوى أوروبية منافسة أو معادية لمواد الحروب والمهارات العسكرية للاتراك . ففى أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر . . اتهمت القوى الكاثوليكية القوى البروتستانتية ؛ خاصة الانجليزية ، بأنها تمد الأتراك بأدوات الحرب ، وخاصة الصفيح : « إن الأتراك يرغبون فى صداقة الانجليز من أجل الصفيح ؛ فمدافعهم تحتاج إليها بينما جنى الانجليز فائدة عظيمة عن طريق التجارة فيها مع الشرق ، وقد أسرت سفينة إنجليزية فى مالطة ، وكانت متجهة لتركيا ، وجد أنها تحتوى على ١٠٠ بالة من الصوف و ٧٠٠ برميل بارود و ١٠ براميل بنادق و ٥٠ بندقية مركبة و ٢٠ سيفًا ، برميلاً مليئًا بسبائك من الذهب عالى النقاء و ٢٠٠٠٠ قطعة عملة ، ومبلغ كبير من الدولارات ، وأشياء أخرى ذات قيمة . وأكثر من ذلك حوت مذكرة مكتوبة صدرت بأمر السلطان [١٥] .

ومع هذا . . فلقد فشلت قرارات الحرمان الكنسى والتهديدات بالعقاب فى ردع هؤلاء الذين يجبون منافع عظيمة من هذه التجارة . بل لقد ظلت الإمدادات الخاصة بالأسلحة ومواد الحروب بواسطة قوي مسيحية للعثمانيين والدول الإسلامية تنمو باطراد ، وفى وقت ما وصلت إلى درجة هاذلة .

ويبدو أنه لم يكن لدى أوروبا سوى العبيد ومواد الحب ، لتعرضه على المشترى المسلم . ومع هذا كانت هناك سلعة أخرى ذكرها المسلمون مرات عديدة وهى القماش الانجليزى الذى كان مشهوراً فى العالم الغربى منذ بداية العصور الوسطى . وقد لاحظ ابن يعقوب الرحالة الذى سافر إلى الغرب فى القرن العاشر ذلك فى حديثه عن جزيرة شاشان ، وهى ربما انجترا الانجلوسكسونية أن :

« هناك نوع من الصوف الفائق الجمال ، حيث لامثيل له فى أى بلد آخر . وهم يقولون إن سبب هذا أن نساءهم يدهنون الصوف بدهن الخنزير الذى يحسن صنفه ، ولونه أبيض أو تراكواز وهو ذو جمال فائق » [١٦] .

إن ابن صاعد وهو كاتب وجغرافى متأخر عن ابن يعقوب لديه معلومات أكثر

قليلا ، إن قماش السكروتا الفاخر يصنع هناك (أى فى انجلترا) . فى هذه الجزيرة لديهم أغنام لها صوف ناعم مثل الحرير، وهم يغطون أغنامهم بالملابس ليحموهم من المطر والشمس والتراب [١٧] .

اقتبست فقرة ابن صاعد السابقة بواسطة الكتاب الجغرافيين المتأخرين عنه ، وهناك إشارة مستقلة فى وصف أوروبا الافرنجية وردت عند رشيد الدين الذى لاحظ أن : « فى كلتا الجزيرتين (ايرلندا وانجلترا) لديهم شياة ، تصنع من فروتها الملابس الصوفية وكذلك صوف السكروتا [١٨] .

إن أصل كلمة سكروتا متنازع عليه ، مع أنه من المحتمل أن الصيغ العربية والفارسية كلها مشتقة من العرب ، وليس العكس . وكان هناك جدل كثير عما إذا كانت الكلمة فى القرن ١٣ قد استخدمت لتشير إلى لون أو نوع معين من القماش . وسواء كانت هذه التجارة أو تلك ذات أهمية فى الشرق الأوسط . . فإن المصادر الثلاثة المذكورة آنفا تشير إلى أن السكروتا شىء معروف وموجود فى أوروبا البعيدة ، ومع هذا . . ففى القرن ١٥ وثائق عثمانية تحتوى على إشارات واضحة إلى قماش إنجليزى يستورد كسلعة للولايات العثمانية [١٩] .

فى أواخر القرن ١٨ تغير الميزان التجارى بشكل حاسم لصالح أوروبا ، وضد الأقطار الإسلامية فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا . لقد بدأت هذه العملية من قبل ظهور الصناعة والتجارة فى أواخر العصور الوسطى وأوائل القرون الحديثة . إن افتتاح وتطور الطرق البحرية التى تمر بالشرق الأوسط ، وحتى تجارة الحرير الفارسى التى كانت - فى وقت ما - مصدرًا مهما للمواد الخام والعوائد الضريبية لتركيا . . أصبحت الآن إلى حد كبير خاضعة لتجار من أوروبا الغربية . وكان انشاء المستعمرات اللاأوروبية فى العالم الجديد ، والنقاط التجارية فى الشرق قد أضاف إلى الطاقة والقدرة الصناعية الجديدة فى أوروبا نفسها ، وأخيرًا أعطى التجار الأوروبيين شيئا أساسيًا لعرضه على الزبائن فى الشرق الأوسط .

بمعنى أوضح . . فإن التكوين التجارى بين الإسلام والمسيحية قد عكس ، فذات

يـوم كـانت أوروبـا تستورد - الـقماش مـن الشرق الأوسط ، وأصـبحت الآن تبـيع القمـاش ، وتستورد المواد الخـام . إن العلاقة التـجارية المتـغيرة قد هوت بـوضوح فى الانهمـاك الشرقى المعـتاد أن كلا من القـهوة والسكـر قد أدخلا إلى أوروبا مـن الشرق الأوسط . والقـهوة التى جاءت أساسـا من الطرف الجنوبـى للبحر الأحمـر ، ربما من أثيوبيا ، وقد أحضرت إلى شرق البحـر المتوسط فى القرن ١٦ ، انـتشرت من هناك فى أوروبا . وحتى الربـع الأخير للقرن ١٧ . كانت القهوة عنصرًا مـهما من بين صادرات الشرق الأوسط إلى أوروبا . وفى الـعشر سنوات الثانية للقرن ١٨ . . زرع الهولنديون القهوة (الـبن) فى جاوة Java وذلك عن أصـل السوق الأوروبى ، بل لـقد صدرت فرنسـا البن المزروع فى مستعمـرات الهند الغربية إلـى تركيا . وفى ١٧٣٩ م ذكر أن بن الهند الغربية وصل إلى Erzurum شرق تركيا . أن البن المزروع فى المستعمرات والذى كان يتاجر فيه التجار الأوربيين ، كان أرخـص من ذلك الذى يجئ من البحر الأحمر ، وقد أدى هذا إلى تخفيض كـمية بن منطقة البحر الأحمر فى الـسوق . لقد كان السكر ينتسب للشرق ، وقد كان فى بادئ الأمر يـكرر فى الهند وإيران ، وقد استوردته أوروبا من مصر وسوريا وشمال أفريقيا ، ثم زرعه الـعرب فى صقلية وأسبانيا . ومن هناك أذ إلى جزر وسط المحيط الاطلنطى ، ثم عاد إلى العالم الجديد .

ومرة أخرى . . قدمت مـستعمرات الهند الغربـية فرصة أحسن استغلالـها فى سنة ١٦٧١ ؛ إذ أقام الفرنسيون معملا للتكرير فـى مرسليا حيث صدروا السكر ، القادم من مستعمراتهم إلـى تركيا ، وقد زاد الاستهلاك التركى له بشك ل هـائل عندما بدأ الأتراك يحلون القهوة بالـسكر وذلك ربما بسبب بن الهند الغربـية الذى كان أشد مرارة . ومن هنا اعتمد بشكـل كبير على السكر الأوروبى . ولقد كان سكر الـهند الغربية أرخص ، وسـرعان ما ساء سـوق الشرق الأوسط . وفـى نهاية الـقرن ١٨ وعندما كـان الأتراك والعرب يشربون كلاً من القهوة والسكر يأتـى من أمريكا الوسطى بواسطة تجار انجليز أو فرنسيين . . المياه الساخنة فقط هى التى كانت ذات مصدر محلي .

هناك سلعـة أخرى فى هذه التجارة الجديدة وهـى الطباق ، لقد كان الطـباق سلعة

جديدة تماما على العالم الإسلامى ، وقد أحضرها التجار الإنجليز من المستعمرات الأمريكية ، والمؤرخ برسيفى يكتب من حوالى ١٦٣٥ ويتكلم عن « مجئ الطباق ذى الرائحة الكريهة والدخان المقزز ، ويقول إن « الإنجليز الكفار أحضروه فى عام ١٠٠٩ (١٦٠١) وباعوه كعلاج لبعض أمراض الرطوبة . » . ومع هذا . . فإن استخدامه امتد بسرعة فيما وراء الأغراض الطبية . وقد استخدمه « الباحثون عن اللذة الشهوانية ، وكذلك الكثير من العلماء والأقوياء » وفى فقرة أخيرة يصف برسيفى الشعبية المباشرة للرذيلة الجديدة ، وآثارها . أن التدخين لايتوقف فى المقاهى . . إن المقاهى أصبحت مملوءة بدخان أزرق إلى درجة أن الجالسين فى هذه المقاهى لايستطيعون رؤية بعضهم بعضا ، « حتى الأماكن العامة قد سمم المتعاطون أجواءها » ، « لم تكن الأنابيب التى يدخنون فيها تترك أياديهم وكان كل شخص ينفخ الدخان فى عين الآخر ، وقد جعلوا الشوارع والأسواق نتنة الرائحة » . وبالرغم من كل هذه الآثار السيئة فإنه ببداية عام ١٠٤٥ (١٦٣٥ - ١٦٣٦) أصبح انتشار الطباق وشهرته ، لايمكن أن تكتب أو يعبر عنها .

فى نهاية القرن ١٨ ساعد الضعف الاقتصادى للشرق الأوسط على تمهيد الطريق للسيادة السياسية والعسكرية لأوروبا فى القرن التالى . ولكن الكتاب المسلمين أظهروا معرفة ضئيلة بهذا ، ولقد ظل الأدب الاقتصادى للغرب غير معروف كلية للقراء المسلمين . ولم يترجم عمل واحد ، ذو محتوى اقتصادى إلى العربية أو الفارسية أو التركية ، حتى القرن ١٩ . . حتى الروايات المحدودة عن أوربا والتى كانت متاحة كانت تختص بالشئون السياسية العسكرية ، ولم يكن لديها شىء تقوله سوى القليل عن اقتصاديات الأمم الأوروبية . وربما يكون الاستثناء الوحيد لهذا هو السفير المراكشى غسانى ، الذى زار مدريد فى ١٦٩٠ - ١٦٩١ ، وكانت تعليقاته على آثار التوسع الأسبانى فى أمريكا ، قد أظهرت نوعا من الفطنة وبعد النظر ، وصدى فلسفة ابن خلدون الاجتماعية .

إن الاسبان لايزالون يملكون كثيراً من المقاطعات والأراضى الشاسعة فى الانديز ،

ومايجلبونه من هـناك يجعلهم أغنياء ، وباحتلال واستغـلال الأراضى الهندية والثروات العظيمـة التى جنيت منها . . تملـك الأمة الأسبانية اليوم أعم ثروة وأكـبر دخل بين كل المسيحيين . ولكن حب الرفاهية ومباهـج الحضارة قد غلبتهم ، ونادرًا ما تجد واحدًا من هذه الأمة يعـمل بالتجارة أو يسافـر للخارج من أجل التـجارة كما تفعل الأمم المسـيحية الأخرى مثل الهولنديـين والانجليز والفرنسيين وأهالى جنوة وأمثـالهم . وبالمثل . . فإن المهن التى تمارسها الطبقات الدنيا وعامة الناس كانت محتقرة من هذا الشعب ، الذى يعد نفسه أسمى من الأمم المـسيحية الأخرى . ومعظم هؤلاء الذين يمـارسون هذه المهن فى أسبانيا فـرنسيون ، ذلك أن وطنهم الأصلى لـم يوفر لهم سوى حياة فقـيرة ، فهاجروا لأسبانيا للبحث عـن العمل وجمع المال . وفى وقت قصير . . كان باستطـاعتهم اقتناء ثروات عظيمة . . . »[٢١] .

إن السفير العثمانى واصف الذى كان فى إسبانيا فى ١٧٨٧ ، ١٧٨٨ لاحظ بعض الآثار الاقتصادية للسبائك الأمريكيـة فيقول : « كل ثلاث سنوات يرسل الاسبانيون ٥ أو ٦ آلاف عامل لمناجم العالم الجديد ، وقد أصبح هـذا ضروريا بالنسبة للدولة ، نظرًا لأن معظم عمال المناجم لايستطيعون الـتكيف مع الطقس ويموتون . إن الذهب والفضة كانا يأتيان إلى دار سـك النقود فى مدريد ، والشعب هزيل والزراعـة ضئيلة ، وهذا ما أجبر الاسبانيين علـى استيراد المواد الغذائية من مراكش وهذا هو الـسبب فى أنهم كانوا يطلبون العلاقة الطيبة مع الحاكم المراكشـى ؛ فهو يبيع لهم الامدادات الغذائية بسعر عال مقابـل ذهب وفضة غير مـضروبين ، ثم تضـرب عملة له فـى مدريد من هذه الـسبائك تحمل نقوشا باسمه »[٢٢] .

لقد كان لدى الوزيـر العثمانى الكثير لـكى يقوله عن الشئون الاقتـصادية ، ولقد ناقش محمد سيد أفـندى هذا أيضًا ، وتأثر بالمصانع التى زارها التى كـانت تنتج القماش والزجاج[٢٣] .

فى الجزء الأخيـر من القرن ١٨ . . أشار مبعوثـون مثل رسمى وعزمى كـثيرًا إلى التجارة والصنـاعة فى الأقطار التى زاروها . ان رسمى ذهـب إلى برلين فى ١٧٧٧ ،

والذى سافر عبر رومانيا وبولندا ، كان له عدد من التعليقات . . لقد لاحظ أنه « فى الملكة البولندية ، بجانب البولنديين . . هناك جنسيتان أخريان هما الروس واليهود . أما الروس . . فيهتمون بالزراعة والأعمال الشاقة الأخرى ، بينما يقوم اليهود فى المدن بالتجارة فى القمح والسلع الأخرى ، وكل الأعمال الأخرى التى تدر ربحا عن طريق البيع والشراد . ولكن الربح أو الفائدة العظمى كانت فى أيدى البولنديين الذين كانوا أغنياء أصلا ، وكانوا يلبسون معاطف بها خيوط ذهبية وذات أكمام عريضة واسعة ، وكابا خفيفا من صوف الحملان . وفى بروسيا . . شاهد مصانع السكر والقماش ، ولاحظ أن الماكينات المستخدمة فى هذه المصانع صنعت فى مدينة برلين . لقد كانوا يصنعونه بأنفسهم أولا فى سكسونيا ثم بعد ذلك فى برلين[٢٤] . إن خليفة عزمى الذى ذهب إلى برلين فى ١٧٩٠ ، كان أكثر اهتمام بالشئون العسكرية والسياسية ، ولكن كان لديه أيضًا ما يقوله عن الجهد الروسى الناجح لتأسيس الصناعات ، القوة التى تمنحها هذه الصناعات للبلاد[٢٥] .

والاشارات إلى أوروبا فى الخطابات العثمانية قبل القرن ١٩ نادرة جدًا . مثال واحد جاء فى عمل أدبى كتبه الشاعر Hashmet بمناسبة ارتقاء السلطان مصطفى الثالث العرش فى ١٧٥٧ . فى هذا العمل يضفى الشاعر التكريم والتشريف على السلطان ، ولكى يمجد اعتلاءه العرش. يستخدم الأسلوب الأدبى الشائع الخاص بالحلم ، وموضوع المسلم المشهور الخاصة بملوك الأرض ، الذين جاءوا ليحترموا ويطيعو رب الإسلام فى منامه ، ويرى الشاعر الملوك يصلون إلى الدولة ليقدموا فروض الطاعة للسلطان الجديد ، ويسألونه امتياز الخدمة فى بلاط السلطان . وهؤلاء الملوك يأتون إلى الشاعر واحدا بعد الآخر ، ويشرحون أغراضهم ، ويلتمسون منه المساعدة فى الحصول على الوظائف التى يريدونها . كل حاكم يذكر امتياز قطره ويطلب تعيينا أو وظيفة مماثلة فى بلاط السلطان الجديد . وإمبراطور الصين يسأل أن يكون أمينا على بورسلين القصر ، وإمام اليمن يريد أن يكون رئيس صانعى القهوة . ثم يأتى بعد ذلك ستةحكام أوروبيين بالترتيب التالى :

قيصر روسيا يسأل أن يكون صانع الفراء الأول ، أو رئيس صانعى الفراء ، والإمبراطور النمساوى الذى يزهو بمهارة بلاده فى صناعة الزجاج والكريستال والمرايا يسأل أن يكون رئيس صانعى الزجاج ، أما حاكم البندقية ، الذى يتحدث عن مهارة شعبه فى المعادن النفسية فهو يطلب أن يكون رئيس الصياغ ، أما ملك انجلترا الذى يتحدث عن إنتاج بلاده لمساحيق وأسلحة الحرب . . يسأل أن يكون مسئولا عن مخازن الأسلحة والمساحيق ، أما ملك هولندا . . فهو يتحدث بزهو عن ازهار التوليب والأزهار الأخرى . . فهو يطلب أن يكون بستانيا ، وأخيرا ملك فرنسا الذى يصف إنتاج بلاده من القماش والملابس يسأل أن يكون مسئولا عن أصواف الملابس ، ولم يذكر حكاما أوروبيين آخرين [٢٦] .

إن المنام الذى رآه حشمت ربما تكون له قيمة ضئيلة كتاريخ اقتصادى ، ولكنه يعطى انطباعا عن مدى رؤية العثمانيين فى منتصف القرن الثامن عشر لدول أوروبا ومنتجاتها .

وأبو طالب خان الذى زار انجلترا فى نهاية القرن الثامن عشر ، كرس فصلا كاملا في كتابه لبدايات الصناعة ، التى استطاع أن يراها فى ذلك الوقت . لقد رأى فى عدد ودقة الماكينات السبب الأول لثروة وعظمة الانجليز . وهذا ما جعل الانجليز يمدون سلطانهم إلى أماكن بعيدة ، وهذا أيضًا ما جعل من المستحيل على جيرانهم الفرنسيين بالرغم من قوتهم وشجاعتهم أن يفعلوا أى شىء ضدهم . ويذكر أبو طالب ويصف أنواعا عديدة من الماكينات ابتداء من أبسطها وهى طواحين القمح ، مرورا بماكينات الحديد الضخمة التى تدار بالبخار ، ويعلق على صناعة المدافع والألواح المعدنية المسطحة والأبر ، ويبدى إعجابه بسرعة وكفاءة ماكينات الغزل . ويصف عملها ، وقد لاحظ أنه بواسطة هذا الاختراع . . أمكن إنتاج القماش بسرعة كبيرة جدًا وبأيد عاملة ضئيلة جدًا . ولكنه لم يعجب بالصنف ؛ حيث وجد أن نوع القماش أقل جودة من ذلك المصنوع على اليد فى الهند . وقد زار أبو طالب أيضا مصانع خمر ، وورق ، ومنشآت أخرى وكان لديه الكثير ليقوله عن المضخات التى تستخدم لمد لندن بالمياه . وقد سمع

عن ماكينات تستخدم فى المطبخ . وقد لاحظ أن « رجال هذه المملكة ليس لديهم صبر ، ويكرهون الأمور التافهة والأعمال التى تستهلك الوقت ، ولذلك . . اخترعوا ماكينات للعمل فى المطابخ للقيام بهذه الأعمال التافهة والأعمال التى تستهلك الوقت ، ولذلك . . اخترعوا ماكينات للعمل فى المطابخ للقيام بهذه الأعمال التافهة ، مثل شواء الدجاج وفرم اللحوم وبشر البصل [٢٧] .

ويبدو أن أبا طالب قد زار عددًا من المصانع فى أجزاء مختلفة من القطر . ولقد تأثر بما رأى فى ذلك الوقت ، وعلق فى ملاحظاته السافرة على المنشآت الاقتصادية للقوة السياسية والعسكرية ، وتبدو العلاقة واضحة بشكل أكبر ، وناقشها بوضوح أيضًا زائر متأخر عن أبى طالب بقليل ، وهو خالد أفندى السفير العثمانى فى باريس من ١٨٠٣ - ١٨٠٦ ، لقد كان خالد أفندى رجعيًا تمامًا يحتقر الفرنسيين والأوروبيين ، ويعارض فكرة تقليدهم بأى شكل ؛ فالعلاج لديه واضح وبسيط : « يعلم الله أن وجهة نظرى هى أنه اذا استطعنا - كاجراء احتياطى كل ٣ أو ٤ سنوات ، توفير ٢٥٠٠٠ كيس من الجديد(●) Asper ، وأنشأنا خمس مصانع للنشوق والورق والكريستال والقماش والبورسلين ، وكذلك مدرسة للغات الجغرافية . . فإنه فى خلال خمس أعوام لن يكون هناك شىء يسيطرون عليه ؛ نظرًا لأن أساس تجارتهم الحالية هو هذه السلع الخمسة ، فليمنح الله رؤساءنا القدرة على العمل والحماسة، أمين » [٢٨] .

إن تأكيد خالد على الحاجة للتعليم المتطور قد تم من قبل ، وتوقع حدوثه بواسطة مصلحى القرن الثامن عشر ، كما أن إشارته للصناعات كواحدة من مصادر قوة أوروبا ، مع أنه قد عبر عنها ببساطة ، تعتبر قضية جديدة ومهمة بالنسبة للشرق الأوسط . وفى خلال القرن التاسع عشر . . أصبح هذا جزءًا من حكمة مقبولة ، وقد رأى الحكام المصلحون فى تركيا ومصر وإيران ، وأماكن أخرى ، العلم والصناعة كطلاسم سحرية يستخرجون بها الكنوز الضخمة للغرب الغامض .

(●) عملة تركية قيمة تساوى ١/ ١٢٠ من القرش